المدارس الروسية في سورية

بينما كانت اللجان الانجيلية والجمعيات الكاثوليكية مشغولةً بمسابقة بعضها بعضاً في ترسيخ القدم وتوسيع دائرة العمل وتكثير عدد المريدين والمجيبين للدعوة في مدن سورية وقراها وسهولها وجبالها تحفزت جمعية جديدة لمزاحمة كل هاتيك الجمعيات السابقة وقد اوشكت ان تنال قصب السبق عليها في مضمار التقدم والنجاح والوصول الى ضالتها المنشودة وغايتها المقصودة لاسبابٍ نبسطها للقراء الكرام في ما يلي

واريد بهذه الجمعية جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية التي نشأت اول عهدها في فلسطين جنوب سورية وما ابطأت أن امتدت مدارسها شمالاً واتسعت شرقاً وغرباً حتى بلغت دمشق فحمص فحماة وجازت بشمال لبنان داخلة طرابلس الشام وملحقاتها وامعنت في الجهة الشمالية حتى بلغت اللاذقية وعن قريبٍ تجتازها الى انطاكية وحلب وتعم كل اقطار سورية. وبعد ما كانت مدارس هذه الجمعية تعد بالآحاد ومعلموها بالعشرات وتلامذتها صبياناً وبناتٍ ببضع مئاتٍ أصبحت مدارسها الآن تحصى بالمئات ومعلموها كذلك وتلامذتها بعشرات الالوف وقد اوشكت ان تكون ضربةً قاضيةً على الجمعيات السابقة لها لانك تراها منذ الآن على حداثة عهدها تنازع تلك الجمعيات حيث حلّت فتستظهر عليها وتستميل اكثر الاهلين اليها وكثيراً ما كانت مدارسها سبباً لتعطيل غيرها من المدارس الانجيلية او الكاثوليكية. اما الاسباب التي مكنتها من سرعة الانتشار واعانتها على هذا الاستظهار فكثيرة نلخصها في ما يأتي

اولاً قدرتها او نفوذها — فليس من جمعيةٍ اجنبيةٍ في سورية تستطيع ان تُباري في نفوذها جمعيةً مبعوثةً من مجمعٍ عظيمٍ في بطرسبرج رئيسهُ العامل صاحب السمو الامبراطوري الغراندوق سرجيوس عم جلالة القيصر. وحامي ذمارهِ جلالة القيصر نفسهِ الذي هو رئيس شرفٍ لها ايضاً. ويروى انهُ لما جلس القيصر على عرشهِ كتب الى سموّ عمهِ يشكرهُ اهتمامهُ بنجاح مصالح هذه الجمعية ويعلن قبولهُ لأن يكون لها رئيس شرفٍ مكان ابيهِ اسكندر الثالث واستعدادهُ لتحق كل قوةٍ تقف في طريقِ تقدمها وانتشارها. ويظهر ان جلالتهُ مخرجٌ لقوله هذا من حيز القوة الى الفعل فانك اذا تتبعت اعمال هذه الجمعية في سورية لا ترى في طريقها اقل شيءٍ من العثرات او المصاعب التي تقام على الدوام في طُرق الجمعيات الأُخر واذا اتفق حدوث شيءٍ من ذلك فانهُ في الحال يزول وقد لا يصدر الأَ عن اناس يجهلون شدة حوْل هذه الجمعية وصولتها حتى اذا رأَوا ما وراءها من القوة التي تميد لها الرواسي لاذوا باكناف

الاستكانة وانزاحوا من طريقها آسفين نادمين

ثانياً مجّانيّة التعليم . كانت الجمعيات الانجيليّة والكاثوليكية في السنين الغابرة تتسابق الى جمع اولاد سورية من الازقة والشوارع واخذهم الى مدارسها وتعليمهم عفواً بدون ان تسوم اهلهم اقلّ نفقة . ولكن في هذه الايام الاخيرة غيّرت خطتها القديمة واخذت تتنافس في ضرب الاجور الفاحشة والنفقات الباهظة على الذين يطلبون تحصيل العلوم في مدارسها

اما الجمعية الروسية فقد عمّمت التعليم المجاني في كل مدارسها بلا استثناء ونهت الرؤساء والمدراء نهياً مطلقاً عن تكليف احد الاولاد غنياً كان او فقيراً ان يدفع غرشاً واحداً مدة وجوده فيها بل يتلقى العلوم ويتناول الكتب والدفاتر والاقلام والحبر والورق وكلما يحتاج اليهِ مجّاناً بلا ثمن على الاطلاق . وهذا كما لا يخفى اكبر مغرٍ للآباء والامهات بارسال اولادهم اليها تخلّصاً من نفقات التعليم واثمان الكتب التي اصبحت في هذه الايام حملاً ثقيلاً ولا سيما على الفقراء الذين هم العدد الاكثر من سكان كل مكان

ثالثاً علاقتها الدينية . ان طائفة الروم الارثوذكس اكبر الطوائف المسيحية في سورية وكان اكثر اولادها قبل انتشار الجمعية الروسية غرضاً ترمي اليهِ الجمعيات الاجنبية وصيداً تحتال على اقتناصهِ . فلما دخلت الجمعية الروسية وليس من يجهل تفاني الروم الارثوذكس في حب الروس غصت مدارسها على الفور باكثر اولاد هذه الطائفة . ولولا ان المدارس الروسية ينقصها بعض امور سنشير اليها في ذيل هذه المقالة لما ابقت على مدرسة لغيرها في جميع الاماكن التي امتدت اليها . قلنا ان الروم الارثوذكس يحبون الروس حباً يقرب ان يكون عبادة وهذا غير مجهولٍ عند الجمعية الروسية وقد اعانها على توثيق هذه العلاقة وزيادة تمكينها انها اكثرت في مدارسها من التعليم الديني وممارسة الصلوات وحفظ كثيرٍ من فروض العبادة غيباً واوجبت على جميع اولاد مدارسها الذهاب معاً الى الكنيسة في كل مساء وصباح من الآحاد والاعياد الممتازة . فهذا كلهُ مع كونهِ من اسمى غايات هذه الجمعية اي نشر التعليم الديني الارثوذكسي جاء موافقاً لاميال السواد الاعظم من ابناء الطائفة الارثوذكسية . والآن حيثما توجد مدرسة روسية فهناك الكنيسة الارثوذكسية غاصّة في الآحاد والاعياد بفرق الصبيان وصفوف البنات ووراءهم جماهير الشعب رجالاً ونساء يزحمون بعضهم بعضاً منقادين الى ذلك اما اقتداء باولادهم او حباً بالتفرج عليهم

رابعاً طرق التعليم . مما امتازت بهِ هذه الجمعية على غيرها من الجمعيات الاجنبيات في سورية انها سنّت لمدارسها قوانين هي غاية في الدقة والضبط وقد رُوعيت بحجة الاولاد

الجسدية ونشاطهم العقلي وسيرتهم الادبية مراعاةً لم تترك حاجةً لمستزيد . وهذه القوانين مطردة الاجراء مرعيةٌ في كل مدارسها ولامطمع لاحدٍ من اساتذتها ومدرسيها في مخالفة واحدٍ منها بدون ان يعرّض نفسهُ للتوبيخ ثم لنقص الراتب واخيرًا للطرد

فمن قوانينها ان يعطي الاولاد من ابن عشر سنين فصاعدًا فسحة (فرصة) عشر دقائق كل ساعةٍ لاراحة الذهن من التعب العقلي . اما الاولاد الذين هم من ابن تسع سنين الى الست فيُعطون كل نصف ساعةٍ فسحة عشرين الى ثلثين دقيقة مراعاة لحداثة سنهم . وفي كل فسحة ينبغي ان تخرج جميع الفرق (الصفوف) ازواجًا ازواجًا كانها فرق عساكر مدربة على المسير بغاية الانتظام والترتيب ولا يسمح لولدٍ ان يمشي محدودبًا بل عليهِ ان يسير منتصب القامة مرفوع الرأس مكشوفهُ ويداهُ على جانبيهِ موفقًا خطواتهِ على خطوات رفيقهِ وفي أثناء اللعب لا يُؤذن للمدرسين ان يتنحوا عن التلاميذ بل يفرض عليهم ان يكونوا واقفين معهم وبينهم وعيونهم مفتوحة لمراقبة العابهم وتلافي خطر اللعب العنيف بالايدي قبل وقوعهِ وتدريب الاولاد على الالعاب المروّضة للاجساد والعديمة الضرر . وعند نهاية الفسحة يقرع الجرس قرعةً واحدةً ينقطع عندها الاولاد عن الحركة والتكلم ويقف كلٌّ منهم حيث كان كانهُ آلة جامدة ثم يقرع لهم الجرس ثانية وباسرع من لمح البصر يسرع كلٌّ منهم الى مكانهِ في الصفّ ويقف احد الاساتذة امامهم كانهُ قائد عسكر ويأخذ في استعراضهم وطلب اتجاههم الى اليمين واليسار والوراء والامام بما لا مزيد عليهِ من الخفة والرشاقة ثم يشير اليهم بالمسير فيمشون مرنين الحانًا يوقعون عليها اقدامهم حتى تدخل كل فرقة منهم الغرفة المخصصة بها وعلى كل استاذٍ ان يفحص كُلاًّ من تلاميذهِ قبل مباشرة التدريس ليرى هل تمّ شروط النظافة المطلوبة منهُ فينظر رأسهُ ووجههُ وعنقهُ ويديهِ ثم يشير في دفترهِ الى الغائب منهم وسبب غيابهِ ويشرع بعد ذلك في عملهِ . ومن قوانين هذه المدارس ان لا يُسمح للمعلم بالجلوس في اثناء التدريس او التسميع بل عليهِ أن يكون واقفًا منتصبًا امام الفرقة وعيناهُ ترقبان كل ولدٍ واذناهُ مصغيتانِ الى كل كلمةٍ . وفي هذا القانون من الحكمة ما لا حاجة الى بيانهِ

ولا يسمح الاستاذ لاحد التلامذة ان يجيب على سؤالٍ القاهُ عليهم قبلما يتحقق انهم كلهم يعرفون ذلك السؤال . وكيفية ذلك انهُ يلقي السؤال على تلميذ منهم وبينما هم جميعهم مهتمون باستخراج الجواب يطلب من تلميذ آخر ان يعيد ذلك السؤال نفسهُ وبهذه الطريقة ترى آذان التلامذة مفتوحة لكل سؤالٍ حتى انهم قلّما يحتاجون ان يُعاد عليهم وبعد ما يتحقق

المعلم انهم جميعهم عارفون بالسؤال يكلف واحداً منهم ان يجيب عليهِ ثم انهُ لا يكتفي بالجواب ولو كان صحيحاً بل يتمحن انتباه الآخرين بطلب اعادتهِ ممن اراد حتى يكون ضامناً لانتباههم كلهم من كل وجهٍ

وعلى كل استاذٍ عند ما يلاحظ كللاً او تعباً عقلياً طرأ على اساتذتهِ ان يوقف العمل هنيهةً ويُريح اذهانهم بان يقصَّ عليهم قصةً صغيرة مضحكةً توجب مسرتهم او أن يأمرهم بالنهوض والجلوس معاً مراتٍ متوالية ثم يرجع الى عملهِ حتى تنتهي الساعة المعينة لذلك الدرس

والتدريس في هذه المدارس لا يُعوَّل فيهِ على حفظ الدروس غيباً في الكتب بل في الاكثر على شرح الاساتذة وبسطهم للمواضيع المهمَّة في ذلك الدرس حتى انهم يدرسون فنوناً كثيرةً القاء بلا كتب

وعند ما يبتدئون يعلّمون الاحداث لغةً ما سواء كانت العربية او احدى اللغات الاجنبية لا يُؤذَن لهم ان يُرهقوا عقول الصغار بتعليمهم اسماء الحروف الهجائية بل يقتصرون على تعليمهم اصوات الحروف لا غير لان هذا هو الشيء المهم للولد في بادىء الامر ان يعرف صوت الحرف ليحفظهُ في ذاكرتهِ ويُطلقهُ عليهِ كلما رآهُ

ولهم في تعليم الحساب اساليب عجيبة غريبة تروّض عقول الاحداث وتعوّدها على صحة الاستدلال وسرعة الحكم بالصواب في المسائل العقلية لانهم لا يحلون لتلميذ مسألة حسابية على الاطلاق بل يساعدونهُ على حلها ويدربونهُ ان يقيس عليها كلما كان من نوعها

ويعوزني الوقت ان اردت شرح ما عندهم من الطرق الصحيحة والاساليب المفيدة الكافلة تقدم التلامذة ونجاحهم والمحافظة الشديدة على صحة اجسادهم وآداب نفوسهم

وما تقوم يكفي للالالة على شدة مسئولية الاستاذة في هذه المدارس فالاستاذ الضعيف العزم المسترخي اليد البطيء الحركة الخائر القوى لا يرى لهُ عملاً في مدارس هذه الجمعية . والضرب في هذه المدارس ممنوع منعاً تاماً ولهم قصاصات ادبية ينفذونها على اساليب مفيدة جداً للاولاد

خلاصة الامر ان الاستاذ في هذه المدارس ينبغي ان يكون لهُ صبر الجندي وخفة الضابط وحذق القائد والاَّ قذفوهُ من حالق ولو كان صدرهُ مدفن حكمة الاولين وعلوم المتأخرين ولذلك ترى النجاح حليفاً لها وقد شاعت بها اللغة الروسيَّة في انحاء سورية على قرب عهدها

اسعد داغر